قصيدة للتشريح

شفيق حبيب في عامه السبعين

الناقد / نور عامر

كنتُ في وقتٍ مضى قد تناولتُ بإعجاب بعضَ نتاج الشاعر المبدع شفيق حبيب، وها أنا ألتقي معه مجدَّدًا في قصيدة جديدة عنوانها : " على شاطئ السبعين" نشرها بمناسبة بلوغه العقد السابع.

يسعدنا أن تمتدَّ به الأيام حتى يرى ما تمناه في قصيدته :

أُســائِلُ عمــري هــل ســيَمْتدّ كــي أرى

زغاريــدَ أرضــي في خــواءِ الخرائــبِ؟

ستة وعشرون بيتًا من البحر الطويل، قصيدة موزونة تمامًا يمتاز مطلعها بما يُسمّى التصريع المستحسَن في الشعر العموديّ، دأبْنا على قراءته عند الشعراء الكبار :

علــى شــاطئ السّــبعينَ حَطــتْ مــراكبي

ونــاءَت بأعبــاءِ الرّزايــا منــاكبي

استهلالٌ رائع يليه موقفٌ أروعُ في التعبير عن الصّمود وحبِّ الوطن :

مَخــرْتُ عُبــابَ الليــلِ والوَيْــلِ شــاعرًا
ولم يَثــنِني قهــرٌ وأحقــادُ غاصِــبِ

أحــبُّ فلســطيني وأهلــي وأرضَــها
إذا مَسَّــهم ضــرٌّ، تنــادت كتــائبي

يتابع شاعرُنا، ولعلّ في ذهنه قول محمود درويش: "وطني ليس حقيبة، وأنا لست مسافر".

وتــترى عقــودٌ والليــالي ثقيلــة
ومــا زال شــعبي نــازلاً في الحقائــبِ

هذا البيت لشفيق حبيب يعاني من الضعف بالقياس عمَّا سبقه من أبيات قوية ثائرة. وكذلك البيت السابع :

أرادوكَ ســقاءً وطفلــكَ حاطِبــا
وأصــبحتَ فــأرًا عنــدهم للتجــاربِ

لو افترضنا أن هذا البيت مدمكٌ لتصدّعَ وأضرّ بكل البناء. لم أفاجأ بصدر البيت، ولم استسغ أصبحت فأرا !

وأين هذا البيت من البيت الحادي عشر والذي اعتبره البيت المحور بالنسبة للموضوع الأساس.

تمُـــرُّ بـــيَ الأيـــامُ والعُمـــرُ نـــازفٌ

ومـــا زلـــتُ في السّـــبعينَ غـــضَّ الرغائـــبِ

يتجلّى حبُّ الشاعر للحياة وتمجيدُه لها، ثم شعوره بالشباب والعنفوان. ولعل هذا الإحساس هو ما فجَّر قريحته لفتح صفحة المرأة التي تحظى عنده بمكانة كبيرة.

عيـــونُ الغـــواني كـــم يُعـــذِبنَ خـــافقي

ويصـــرعُني عَمْـــداً صـــدودُ الكواعِـــبِ

صورةٌ شعريةٌ مثيرة، الرغبة والصّد، الاندفاع والإخفاق، التناقض في التشكيل وفي ملامح الزمن : الامتداد النضوج والكم (الشاعر)، والزهور البكر (الكواعب) مفرد : الجارية نهد ثدياها.

ويستهويه هذا العشق حتى نراه يتعالى على سليمان في" نشيد الإنشاد" ويتعالى على قيس !

نشـــيدُ ســـليمانٍ صـــدىً في محـــابري

وأمطـــارُ قـــيسٍ قطـــرةٌ في ســـحائبي

ويزداد حماسه فلا يترك في الحي حسناء، يعشق بالجملة !!

عشـــقتُ حِســـانَ الحـــيِّ عِشـــقًا مُراوغًـــا
وقاتلـــتُ حتـــى قيـــلَ: خـــيرُ مُحـــاربِ

ولا يرى غضاضة في الخلط بين العشق الصوفي، وعشق المرأة، خاصةً الفتاةَ اللعوب.

تغنيْـــتُ بالعِشـــقِ الإلهـــيِّ مُـــدْنفًا
وعـــدتُ قتـــيلاً في ســـيوفِ اللواعـــبِ

هذه المفارقة تحتاج إلى التفكّر لتفسير ما قصده الشاعر. الصواب في نظري أن ندع المسألة مفتوحة.. وأن نلتفت إلى براعة الشاعر في التمهيد قبل دخوله عالم الأنثى؛ ربما ليحصّن نفسه من الظنون...

وإنـــي جميـــلُ الـــنفسِ حُـــرٌّ، عفيفهـــا
ولكنهـــا تـــزدادُ شـــهداً تجـــاربي

من خلال معرفتنا به نقرّ له بهذه الصفة النبيلة، ولا تفوتنا الإشارة أنه شاعر من أجل قضية يجسّدها بموهبته المشبعة بالتجربة والمعرفة:

أنـــا شـــاعرٌ تغـــذوهُ آمـــالُ أمَّـــةٍ

وآلامُهـــا ، والحـــرفُ ثـــرُّ المواهـــبِ

زرعـــتُ علـــى التـــاريخِ رايـــاتِ نصْـــرِها

ونكسْـــتها حـــين اســـتبيحَتْ ملاعـــبي

نلحظ بوضوح الفجوة الواسعة بين صدر البيت الثاني وعجزه. مصرعان متنافران بحدّة !.. ليته جعل عجز البيت موازيا لصدره فخرًا وشموخًا، كما فعل النابغة الجعدي مفتخرًا بقومه:

بلغنـــا الســـماءَ مجـــدُنا وجـــدودُنا

وإنـــا لنرجـــو فـــوقَ ذلـــك مظهـــرا

وبخصوص القافية فإن الشاعر يتحكم بها في معظم قصيدته، لكن بعض القوافي تخرج عن طوعه، بمعنى إنها تثبت من اجل القافية ليس إلا. كقوله على سبيل المثال:

علـــى جبهـــةِ الأيـــامِ تعلـــو قصـــائدي

وتبقـــى شـــهودَ العصْـــرِ، عصْـــرِ النواكـــبِ

يُعرف بدون شك إن الصحيح لغويًّا (نكبات) جمع نكبة، وليس النواكب. لكنه اضطر لوضعها كي تستقيم القافية.

إن لشفيق حبيب صولاتٍ كثيرةً في شعر التفعيلة، لكنه في الحقيقة مولعٌ بالشعر القديم، ومن نتائج هذا الولع أنه في قصيدته هذه تنازل قليلاً عن لغة العصر في وصفه الأخطار التي تحيق بأمّتنا في ظل الهيمنة والمكر وسطوة السلاح، كقوله :

(شفار المخالب.. ظلال الثعالب.. طعامُ النواعب).

ومع ذلك تبقى هذه الألفاظ القديمة محبَّبة إلى نفوسنا من منطلق عشقنا للغتنا العربية.

لعلَّ دافعي الأول في نقد هذه القصيدة أن شاعرَنا الكريم صادقُ الشعور صريحُ العبارة، لدرجة أنك لا تجد في قصيدته فقرةً واحدةً ملتويةً أو مخادِعة، لذلك نقرأ هذا النص المميز بكثير من التفاعل والتقدير.

صحيفة "كل العرب" الناصراوية

١٨-٢-٢٠١١

صحيفة "الحقيقة" المحلية

٢٥-٢-٢٠١١